جامعة البصرة
كلية الفنون الجميلة
قسم الفنون التشكيلية/ الدراسات العليا
الماجستير

المحاضرة الأولى

فن العمارة.. بداياته وتطوره

الدراسات العليا-الماجستير

2021

د. عقيل صالح آل شاروح

فن العمارة.. بداياته وتطوره

إن دوافع الإنسان تختلف وفقاً للكثير من المعطيات والمحددات التي تؤثر في أفكاره وتوجهاته وما يؤمن به من القيم وينشده من الأهداف. فدأب الإنسان منذ عصوره القديمة على توظيف أشكاله البسيطة (التجريدية)المختزلة على جدران الكهوف، ناقلا لنا فكرة صورية لمدى بساطة إمكاناته المعيشية في بيئة جعلته يتصارع من اجل البقاء على قيد الحياة، فضلا عن صنع أساليب يحقق بها غاياته ورغباته ويعبر بها عن ذاته لتفسير ما يحيط به، فانتج صوراً وأشكالا باتت توصف بانها أعمال فنية غاية الروعة، مصورا ما حوله من الطبيعة والأحداث لما يمتلكه من حس عالي وعين بصيرة، مستغلاً موهبته وأنامله الماهرة في تنفيذ رسوماته بغية السيطرة على تقلبات الطبيعة دونما إغفال لاعتقاده بما هو خارج سيطرته من أشياء أسطورية سحرية ينشد التغلب عليها عبر صراع فكري نفسي متوالد من ما يهدده وليشعر بالأمن ومن ثم الاستقرار النفسي. فضلا عن إدراكه لأهمية العامل الاقتصادي ودوره في سعيه للحصول على طريدته وما يتركه ذلك العمل من شعور بالفرح والسرور حين يقوم بتنفيذ ما فعله على جدران الكهوف كنوع من تعزيز الشعور بامتلاكه له.

ولم يكن لتلك الرسوم أن تظهر إلى الوجود أو ان تصل إلينا صورها اليوم لو لم يكن هناك رسوم لها على وجدران وسطوح لترسم عليها كما في جدران الكهوف التي تمثل واحدة من أولى صور المساكن التي مثلت المأوى للإنسان القديم، لتتطور من بعد ذلك أشكال المنظومة المعمارية فظهرت بصور متعددة. فكانت الكهوف هي الملاذ الآمن من ظواهر الطبيعة من الفيضانات والأمطار الرعود وغيرها من ظواهر(غضب) الطبيعة، فضلا عن الاحتماء من الحيوانات المفترسة التي لا يقوى الإنسان القديم على مواجهتها، ولكن تلك الكهوف تكون منعزلة وبعيدة في الجبال عن الأنهار والبحيرات وأماكن الحيوانات التي يمكنه صيدها بقدراته البسيطة، الأمر الذي يدفعه كل مرة الى الصعود والنزول من الجبال. فبدأ مع تكرار العملية إدراك ان بإمكانه استعمال الحفر في السهول للاختباء من الحيوانات بالاختباء فيها تحت لحاء او أغصان الأشجار دون الحاجة الى الصعود مرة أخرى الى كهفه الجبلي. فكانت الحفر هي أول فكاره في السكن المصنوع

من قبله. ومع تزايد الأفراد كانت الحاجة الى عدد أكثر من الحفر التي يجب ان تكون قريبة من بعضا ليبقى أفرادها مجتمعين لحماية بعضهم البعض وتقاسم أقواتهم، فتعددت الحفر وأيضا تعددت وظائفها فمنها ما أصبح يستخدم لحفظ الطعام وأخرى لحفظ لحوم الحيوانات التي يصطادها، الأمر الذي تطور لاحقا ليكون من اجل خزن المحاصيل التي تعلم زراعتها، ومع غرق تلك احفر بمياه الأمطار والفيضانات كانت الحاجة الى إيجاد بديل عن الحفر يوفر الحماية والكافية من تلك المؤثرات، فبدأ بتكوين الحجارة كمصدات عن المخاطر تعلم لاحقا ربطها بالطين.

لقد استعمل الطين منذ العصور الحجرية الحديثة كمادة أولية في البناء، لتستخدم فيما بعد كـ(مونة) لربط اللبن فشكلا نسيجاً كاملا على درجة عالية من القوة والمتانة لكونهما يتكونان من نفس المادة وخصائصها، ليستخدم الطين كملاط لتغطية واجهات الأسوار وجدران ومداخل المبنى اذ كانت تطلى بطبقة سميكة لتغطية الثغرات والمحافظة على الجدران من التشقق نتيجة لعوامل الطقس، فضلا عن كون ذلك الكساء الطيني يشكل غلافاً تزينياً وبالأخص إن تم تلونه. وهكذا تطورت منظومة السكنى. ومع الالتفات الى أثر البيئة ودورها في تلبية احتياجات المبنى من المواد الأولية لتشكيل هياكل المباني ليستخدم اللبن في البناء لقلة كلفته وسهولة تشكيله ليلائم احتياجات المبنى وملائمة الظروف المناخية حيث تتميز المباني المشيدة من اللبن لتلائم طبيعة الظروف المناخية في العراق لما يميزه بخواص حفظ حرارة الشتاء داخل المبنى.

العمارة أكثر من فكرة (سكن)

لقد خلد التاريخ هذه المنجزات المعمارية لتكون نقطة انطلاقه لفنون العمارة المتطورة والتي اعتبرت امتداد التداخل الفكري والحضاري والعقائدي فاجتهد كل جيل لاحق في تطوير ما بدأه السابق ويضيف أليه خبراته المستجدة المتراكمة. واستمر توارث الأجيال وإتباع ما خطاه الأولون بإشكال وتصاميم في تطورية من زمن الى اخر عبر الحضارات منتجة إبداعات مكنونة بقوى لا مرئية كالعقائد والأساطير التي كان لها الدور الأكبر في منجزاتهم لازالت أثارها باقية ذات حس جمالي عالي كان له الأثر في استنباط قدسية الفن على مر الحضارات مثل (سامراء والوركاء) والفنون السومرية من خلال تمثيل أشكالها البعيدة عن الواقع ايمانا بقوى خفية مطلقة بعيدة عن

تدارك العين المجردة بل هي روحية غيبية(مكانها ليس الأرض لان الإنسان يعرف الأرض بل مكانها السماء التي يجهلها ويجهل المطر والبرق والرعد القادم منها). فساهمت تلك (الروح الغيبية) بتحفيز ذهن الفنان المصمم لإيجاد حلول لتقصر المسافة بين الأرض والسماء التي توجد فيها القوى الغيبية، ولعل من أبرز هذه الحلول هو بناء أماكن يتخضع فيها الى هذه القوى لينال استحسانها كالزقورات التي بناها بأسلوب هندسي في غاية الدقة والإبداع واستخدام الرموز التي تعبر عن الخلود وفكرة الغير منتهي.

كانت براعة الفنان المعماري في تشكيل وتشييد البنى المعمارية تتمثل في إيجاد الوسائل والحلول المناسبة لمنح المبنى المتانة والقوة، فالواجهات الخارجية التي كانت عرضة لعوامل الطبيعة حيث حرص المعماري على صيانة مستمرة لمنح المبنى الديمومة. فمنذ عصور العبيد (الألف الرابع ق.م.) حيث كانت واجهات المبنى تحلى بالتجاويف وعبر العصور في محاولاته. بينما نجد في العصر الأكدى تطوراً ملحوظ في ذهنية الإنسان الفنان المصمم من حيث توالد فكر دنيوي أكثر مما هو ديني تطورت العمارة على أثره إذ بنيت القصور والحصون والآلات الحربية وكانت مشاهدهم حربية متضمنة مواضيع انتصار الملوك في المعارك. فسطر لنا فن العمارة تاريخ الحقب السالفة ليحكي في المستقبل عن حقبة الحاضر، فما يبنى اليوم سيكون قياسياً بتطور حضارتنا بين الأمس واليوم وغداً. ومن اهم الأبنية التي اكتشفها علماء الأثار في المدن القديمة المطورة تحت التلال الأثرية هي المعابد كانت لا تخلو معظمها من برج أو أكثر (زقورة) يعلوها بيت إله المدينة الأعظم، وبالرغم من جميع النكبات التي أصابت تلك المدن والتي أدت الى اندثارها وزوالها من الوجود، الا ان فنها المعماري وما تحويه من اثار فنية أخرى ضل خالدا ينطق بما كان عليه حال الأمم التي شيدتها من تقدم في الحضارة.

وهكذا استمر الإنسان بأسلوب أدائه لفنونه عبر الحضارات المختلفة السالف منها واللاحق وكل عصر كان يتميز بوجود دوافع تذهب بالفنان لأداء فنونه وصولا الى الحضارة الإسلامية التي تكونت بعد تبلور فكرة التوحيد لله وجمع راية المسلمين وتوسعهم بالفتوحات الإسلامية على الدول والشعوب التي أدت الى التفاعل الحضاري بينهم وتكوين فكر واحد ودستور يجمعهم مما أدى الى

خلق وحدة متكاملة فيما بينهم جعلهم يعبرون عن نفسهم في كافة الجوانب العقائدية والسياسية والاجتماعية والتي تصب في مجمل إنجازاتهم الفنية، لان الإنسان بما يملكه من عقل وبفضل مرونة جهازه العصبي وتعقده هو الكائن الوحيد المؤهل لخلق الحضارة.